بارث الأخير*

تزفتان تودوروف

ترجمة: أحمد الفوحي

ستبقى وفاة بارث بالنسبة إلي مرتبطة أيما ارتباط بتجربة أخرى تهمه: إنها قراءة الغرفة المضاءة؛ المؤلَّف الذي نجد الموت حاضرا فيه باستمرار حضورَ الموت[1] وموت أمه وموته هو نفسه. ولا يمكنني فصل حدث [الموت] عن هذه الجمل التي تتردد باستمرار: " لقد ماتت، و[بموتها] لم يعد بمكنتي إلا انتظار موتي التام الذي لا مراء فيه." "بعد هذا الموت الأول أصبح موتي محتوما، ولا يسعني، خلال الفترة الفاصلة بين الموتتين، إلا ترقب ساعتي." فالتطابق بين الجوهري والعرضي أمر محير للغاية.

من العادي جدا القول عن شخص ما إنه لا يعوض (ومن هذا الذي يمكن تعويضه؟). يبدو في نظري أن هناك سببا إضافيا لإطلاق هذا الحكم على بارث: وهو مرتبط بالدور الذي كان يقوم به في حياتنا الثقافية. لقد كان ينتمي إلى زمرة اعتلت قمة الهرم الفكري. وكان واحدا من أولائك [الكتاب] الذين يفترض أننا نكون اطلعنا على مؤلفاتهم، والذين يشكلون موضوع نقاش بين شخصين لا يعرف أحدهما صاحبه. لقد كان واحدا ممن نُسأل عنه في الخارج، كما لو أن شهرة الاسم تربط بالشخص ارتباطا حميميا: "كيف حال فلان؟ وبم يشتغل بارث؟".كما يمكننا تعداد المدارس الفكرية أو الحركات الفنية والفلسفية التي كانت مكونة، أو كان على رأسها زيد[2] أو عمرو[2] أو رولان بارث أو غيرهم. ولعل هذا ما يجعلنا نعتقد باستحالة تعويضه: لقد كان أستاذا ملهما ضمن آخرين.

وفي الواقع لم يكن بارث أستاذا ملهما رغم تربعه على رأس الصرح الثقافي، وهذا ما كان يميزه. فبدل أن يكون أحد الأساتذة الموجودين بيننا، استطاع إحداث مباينة عن كل

خطابات الأستاذية التي كانت متداولة، لقد أرسى تجاوزا لكل تلك الخطابات لا نكاد ندركه، استحال معه تلقيه مثلما جرت به العادة. لقد اصطنع لنفسه مهمة قام بها بصورة جعلت الرجوع إليه أمرا لازما يستحيل معه تعويضه؛ إنها مهمة خلخلة الأستاذية المرتبطة بالخطاب.

لقد وجدنا صعوبة كبيرة في تصنيف نصوص بارث ضمن واحد من أنماط الخطاب المعروفة، التي أصبحنا نتلقاها دون السؤال عن طبيعتها[3]؛ وكان هذا مدعاة لشن حملات على بارث من لدن جهات كانت تعتبر الثقافة هي الطبيعة والطبيعة بمثابة قوانين جنائية: فقد قيل إنه لم يكن عالما ولا فيلسوفا ولا روائيا. وهذا ما دفعه، في بعض الأحيان، إلى إبداع نصوص تندرج بجلاء في أحد الأجناس "العلمية" أو"الفلسفية" (وهي الكتابات التي لم يحالفها التوفيق). كما أن الشائعات كانت تروج لشروع بارث في كتابة الرواية ليكون ذلك مسوغا لاحتلاله حيزا في الرقعة وتحديد مكانته ضمن التصنيف الأجناسي. وبالفعل فقد دل هذا على أن الناس لم تدرك الجديد في خطابه. فما كتبه كان عبارة عن الخيال، ولكنه خيال يهم فعل التلفظ نفسه. فبدل أن يكون بارث الروائي الأصيل لقصة خيالية كان المنشئ غير الأصيل لقصص (أو خطابات) حقيقية.

لقد استطاع بارث أن يهدد خطاب الأستاذية بإنتاج خطاب أصيل (غير مسبوق): فرغم قيامه على محتوى فكري (علمي–فلسفي) فقد كان خلوا من الطابع اليقيني، و لم يكن يحفل – مثلما كان ينبغي له– بموافقة الحقيقة. لقد اتسم طابعه المميز بالخيال الذي لا يسمح بتلقي سؤال الصحة والخطأ القائم على مبدأ الشاهد. وهو الأمر الذي لم ينفه بارث الذي كتب في استهلال أحد مؤلفاته أنه "يجب النظر إلى ما يلي على أنه قول إحدى شخصيات الرواية". وهي النتيجة التي كان ينتهي إليها، داخل كل نص، بطرق شتى قائمة على الاشتغال باللغة كالجناس والالتباس والاستعارة. فنصوص بارث تبدأ غالبا في صورة مقالات عالمة مؤسسة على إقامة التباينات وتحديد المصطلحات، تشفي غليل القارئ المتعطش للمعرفة وتجعل حال لسانه يقول: ها [قد عثرت على] رماح مثقفة يمكنني استعمالها بدوري. غير أن الأمل سيتبخر شيئا فشيئا، كما لو أن ذلك كان نتيجة استراتيجية محكمة. وإذا كان الإقرار بوجود بارثيين [متفرقين] في العالم، فليس سبب ذلك وجود ترسانة من المفاهيم المشتركة، وإنما بسبب أنهم "استعملوا"

و"طبقوا" بل اعتبروا أن إحدى شخصيات [نصوص] بارث ترمز إليه [هو نفسه]. فكلمات بارث لن تصبح أبدا عُدة [في يد أحد] ولن تمكن من الفهم، وإنما ستنفجر وتتشتت وتنمحي كلما أوغلنا في النص بدل أن تنجلي دلالاتها.

ومهما يكن أي نص عرضا متماسكا للأفكار، فإن بقية النصوص الأخرى تكون كافية لتبديد وهم [ارتباطها] بخيط ناظم. وكل مؤلف جديد [يصدر] عن فيلسوف أو أستاذ ملهم يتولى توضيح قطعة معينة من النسق؛ ومع استحالة الحديث عن الكل دفعة واحدة يتعين معالجة جوانب المسألة الواحدَ تلو الآخر. غير أنه لا شيء مما سبق واقع بالنسبة لبارث، ولا إمكان لاعتبار نصوصه المتتابعة تشكيلا يسمح بقيام ثنائية تمنع وقوع التناقض (لكل واحد الحق في تغيير رأيه، أي تحسينه). فما كتبه إلا [مؤلفات] متراح الواحد منها عن الآخر ومحول ومختل. فـــــ"المناهج" المختلفة تتوالى متراحة دون تمفصل ولا تنافر. وكل صوت ننصت إليه معزولا يبدو أصيلا، وإذا ربطناه بصوت آخر بدا نسخة من صاحبه أو اختلاسا منه.

ولمن لم يدرك [مفهوم] تشتت التناص لدى الكاتب الواحد ولا تشتته بين كاتبين، فإن بارث كتب في الفترة الأخيرة من حياته مؤلفات عديدة وبخاصة رولان بارث الذي ذكر فيه كيف أنه "حاول استعمال خطاب غير مصوغ باسم القانون أو العنف"، خطاب يغيب القيم العسكرية من قبيل البطولة والنصر والهيمنة. ولا أحد يمكنه اعتبار بارث سميولوجياً ولا عالم اجتماع ولا لسانيا، بالرغم من أنه اقتحم هذه المجالات، ولا أيضا فيلسوفا أو "منظرا".(فالصورة الشهيرة لبارث المفضلة لدي هي التي التقطت له عند السبورة وهو يشرح معادلة بنيوية مبتسما ابتسامة تقوم بوظيفة المزدوجتين).

ليست مؤلفات بارث عرضا لأفكار وإنما هي إشارات لفظية، فعل كتابي؛ تحصلت قيمتها من كونها إنتاجا [لصاحبها]. ولما تخلى بارث عن طموح الرجل المالك للحقيقة لم يكن من الممكن اعتباره زعيما (أستاذا ملهما على الإطلاق، وإنما أستاذا محبا للحياة). ولما لم [يرغب في أن يكون] أستاذا ملهما فقد كان زاهدا في السلطة. قد ننكر هذا الأمر [بالقول إن] بارث كان له حظ من السلطة المعرفية، ولكنه لم يجر قط وراء السلطة (الحقيقية) بل كان يتحاشاها ويفضل عنها التشريفات والإشارات الدالة على المحبة.

ويمكن القول إن بارث رفض دائما تبني خطاب الأب (ما دام بعض الآباء لم يتصرفوا بالشكل الذي يجب أن يكون عليه الأب). لقد بقي فيه، باستمرار، شيء من المراهقة وحتى الطفولة. ولم تكن له حقيقة يفرضها على الآخرين ولا على نفسه هو؛ ولعل هذا ما جعله عرضة لهجومات كان يتعرض لها من حين لآخر، ولم يكن يحسن صدها (لأنه كان محاربا سيئا). لقد كان يبدو دائما في عمر طلبة آخر محاضرة له (في الوقت الذي شاخت فيه الأفواج السابقة)، ولم يجد صعوبة في الانخراط في آخر الابتكارات. وشذرات من خطاب عاشق تبدأ بكلام المراهقين على لسان ويرذير:"إنهم يجسدون الحب[4] لا اللذة". وفي عالم الإثارة نجد الدور السلبي موكلا إلى المنحوس، مثلما هو الأمر في عالم الصبيان؛ ولم تختلف استيهاماته عن الأسرة عن مثيلاتها لدى الأطفال، فقد كان أساسها العلاقات العمودية الجامحة لكل لذة. فلم يكن بمقدوره أن يكون إلا أبا غريب الأطوار، مثلما كانت أمهات أبولينير بنات بناتها: لقد كان أبا أمه، مثلما صرح به في آخر كتبه، وأبا نفسه. ألم تكن وفاته وفاة طفل [طائش] وهو يقطع الطريق؟[5]

يبدو (في نظري) أن نشر رولان بارث سنة 1975 يشكل تحولا في خطاب بارث. لقد كان بالإمكان، حتى هذه السنة، التمييز بين الأجناس التي كانت تندرج ضمنها مؤلفات بارث، أو، بالأحرى، المحاور التي كانت تسير فيها. فقد كان هناك فرق بين كتب نقدية وأخرى قطعية، كتب ساخرة وأخرى حالمة، كتب يغلب عليها الخطاب النقدي للمنظومة القائمة وأخرى تنتصر للمفارقات، كتب [تغلب عليها] البلاهة وأخرى [تنتصر] للعقل. ويمكن تقسيمها [من زاوية أخرى] إلى كتب حقيقية موضوعية (بمعنى أنها ذات موضوع معين) وأخرى تنظيرية. وقد أشار بارث نفسه إلى انقسام [مؤلفاته] إلى مراحل مختلفة كان لها أثر في قناعاته الفكرية: فمن مرحلة ماركسية إلى أخرى بنيوية وثالثة تيلكيلية[6]. وابتداء من 1975 لم تعكس كتب بارث أي قناعة معينة، ولا أثر فيها لخطاب الزعيم (يُستشهد به ثم يحرَّف). فبالنسبة إليّ، تنقسم أعمال بارث– وهذا أمر بالغ الأهمية دون سواه– إلى مرحلتين كبيرتين: مرحلة بارث الأول التي اعتمد فيها لغة أستاذية تسمح بوجود مريدين قد يكونون أخطأوا الوجهة؛ ومرحلة

بارث الأخير التي تخلى فيها عن مثل هذا التوجه. وقد شهدت هذه الأخيرة صدور الثلاثية: رولان بارث و شذرات من خطابٍ عاشق والغرفة المضاءة.

يقول بارث في إحدى محاضراته: يجب الاختيار بين الإرهاب والأنانية، وهذا الاختيار هو ما يفسر الفرق بين ما قبل 1975 وبين ما بعدها. فالصفة التي كان عليها بارث، حتى هذا التاريخ، في حياته وفي نظر أصدقائه (أي لا-إرهابي) لزمته أيضا في كتبه. فكتب ما قبل 1975 لم تكن "إرهابية" على طريقة كتابات الأستاذ الملهم ، وإنما على طريقتها هي، ذلك أنها كانت تتبنى موقفا أو حقيقة ما، في كتابة أو صفحة معينتين. وكان يجب حصر مجال تطبيق القناعات على الذات لكي لا نفرضها على الغير. وهكذا لن يقع الاختيار على الذاتي وإنما على الموضوعي؛ غير أنني أجد نفسي أذهب إلى العكس، فلطالما كان "الموضوعي" استيهاما شخصيا في حين أن الحديث عن الذات يقتضي استحداث موضوع [معين]. كما أن الاختيار لن يقع على الفردي دون الكوني، وهنا لن يكون الجمعي الذي تواضعنا على التحدث باسمه إلا وهما؛ ومن المؤكد أن ثلاثية بارث الأخيرة خير ما يجسد الكونية (في حين أنه كان يتوجه في السابق إلى جمهور محصور في الأدباء والعلماء). وكان ينبغي لبارث أن يصبح أنانيا وألا يقدم في كتبه خطابا (يبقى في كل الأحوال إيعازا) فحسب، وإنما ذاتا أيضا: موضوعا من غير محمول، وذلك حتى تنتفي عنه صفة الإرهابي.

وعكس ما يمكن تصوره فليس من السهل أن يصبح [المرء] أنانيا، وإنما يتم ذلك عن طريق تنازلات [عديدة]. فقد صرح بارث في استجواب له سنة 1971 أن ما لا تستطيع الكتابة تحمله هو استعمال ضمير المتكلم متبوعا بالماضي البسيط: مؤشر الأنا المركزية المشفوع بعلامة الواقع التي يعبر عنها الماضي البسيط. لقد أمضى زمنا معتبرا لتمثل هاتين العلامتين. ففي رولان بارث يتعلق الأمر به، ولكي يشير إلى نفسه استعمل (أساسا) ضمير الغائب والزمن الحاضر. وفي شذرات من خطابٍ عاشق اعتمد ضمير المتكلم مع الحفاظ على الحاضر، والفرق بين الصيغتين واضح: فالحاضر ينفي الواقع ويعمم في آن واحد. ولسنا بصدد قراءة تجربة فردية وإنما تجربة مقترحة علينا (دون إلزام) مقدمة على أنها تجربة الجميع، أو على الأقل تجربة مشتركة؛ توجب صيغة الخطاب من خلالها مكانة معينة لنا (ولو كان الإلزام بها ضعيفا). وتبدأ فصول الغرفة

المضاءة السبعة، المؤلف الذي يتناول فيه بارث موت والدته، بضمير المتكلم متبوعا بالماضي البسيط؛ وهي الصفحات التي لا أعتبرها أقوى ما كتب بارث فحسب، وإنما البالغة التأثير: "وذات مساء من شهر نونبر، أياما قليلة بعد وفاة أمي، رتبت الصور". وستصبح هذه التجربة الفردية جماعية، عن طريق السماح لكل واحد منا باختيار موقعه في الخطاب المعروض، لا بالاكتفاء بتقديم صورة للإنسان [في مثل هذا الموقف].

يبدو أن شيئا ما تغير، بين الكتابين الأولين وبين ثالث الثلاثية الذي جعل من هذه الجملة أمرا ممكنا: هذا الـــ "شيء ما"، الذي تقوله الجملة نفسها، وهو موت أمه. ففعل الكتابة لا يمكن فصله عن التمثل النفسي للأدوار؛ فما نكتبه محكوم بالتجربة المعاصرة للغيرية. وقد تساءل في رولان بارث عن أنجح ما يكون كتب، فكان الجواب أنه إمبراطورية العلامات ثم أضاف:أنه صادف، مما لا شك فيه، أسعد مرحلة غيرية عاشها. ومن أنجح ما كتب بارث في المرحلة الأولى (من غير أن يعني ذلك أنها أغناها أو أكثرها أهمية) مؤلفاته "الموضوعية" نحو مِشْليه أو إمبراطورية العلامات الكتابين اللذين يكاد يغيب فيهما خطاب الوصاية: كما لو أنه جاء عوضا عن غياب الغيرية السعيدة وممثلا لها في الكتاب. وفي هذه الكتب لم يعد بارث يتبنى، ولو بصفة مؤقتة، خطابا معينا؛ وإنما أصبح ينتج سيمولاكرا، كيانا وسيطا بين الموضوع المدرَك وبين الذات المدرِكة، بين حقيقة الـــــ"هناك" وبين حساسية الـــ"هنا- الآن"، الذي سيشكل بارث نفسه لحظته.

ومن المؤكد أن الكتابة وما تصوره لا يملآن، بطريقة تلقائية، الفراغات في نظام الغيريات الذي يشكل كل واحد [منا] منطلقه. فالمثقف المحترف المعاصر في حاجة إلى علاقة سعيدة لكي يكتب باطمئنان؛ إنه مسكين. فهو في حاجة إلى الآخر لكي لا ينشغل به وينصرف إلى شيء آخر، كالكتابة مثلا. وهذه الأخيرة لا تعوض وإنما تقتضي بعض الشروط؛ فانصرام العلاقة السعيدة يفضي إلى التوقف عن الكتابة (إنه اللوم المزدوج الذي يوجه إلى الآخر). فبارث جزء من منظومة غيريتي، وأنا مدين له بالشيء الكثير؛ ويبدو أن موته سيجعلني مدينا له أكثر فأكثر.

لقد جعله موت أمه يكتب [جملة]: "رتبت"؛ وكان يقول: "إن الكتابة عن شيء ما إيذان بانتهاء صلاحيته[7]". وبالمقابل فإن الكتابة عن الموتى أمر مباح. فليست أمه، وحدها، من

ماتت وإنما هو نفسه باعتبار آخر. لقد شكلت الأم بالنسبة إليه الشق الداخلي الذي يمكن الشق الآخر، الخارجي، والـــ"أنا" من الوجود. وبموتها تكون حياته انتهت، وأصبح من الممكن تحولها إلى موضوع للكتابة. وما لا شك فيه أنه كانت لبارث مشاريع كتب أخرى، غير أنه لم تعد له حياة يحياها[8]. وأجد أن تخصيص آخر كتبه للصورة أمرا بالغ الدلالة (لقد كان كذلك بصورة خادعة). وسواء كانت الصورة بليغة أو محتشمة فإنها تعبر عن شيء واحد لا غير: لقد كنت هنا، وتفضي إلى حركة إشارية، الإحالة الصامتة. والصورة ترميز لعالم قبل الخطاب أو بعده؛ إنها تجعل من الـــ"أنا" موضوعا أي [كائنا] ميتا. فما أطلق عليه بارث "بحثي الأخير" (هل هو صدفة أم هفوة أم نبوءة؟) كان متعلقا أيضا بالموت.

لقد كتب بارث في الغرفة المضاءة: "كنت أبحث عن طبيعة فعل لا مصدر له ولا يستعمل إلا مجردا من الزمن ومن الصيغة". وهذا الفعل موجود في الفرنسية وخاص بالموت، إنه: هنا يرقد ci-gît.

الهوامش:

*–صباح يوم 25 مارس 1980 صدمت سيارة رولان بارث وهو متوجه إلى الكوليج دو فرانس لإلقاء دروسه كالعادة، فوافته المنية في المستشفى في اليوم الموالي (26 مارس). فخصصت مجلة Poétique عددا خاصا ببارث هو العدد 47 الصادر في شهر شتنبر 1981، الذي شارك فيه زملاؤه من أمثال ديريدا وجونيت وتودوروف. والمقال المترجم لهذا الأخير، وهو يشغل الصفحات من 223 إلى 227.

1–اخترنا البنط الغليظ لنقابل به استعمال الفرنسية الحرف التاجي (majuscule) في كلمات عادية لتمييزها وتشخيصها. فالموت هنا، بالحرف التاجي (la Mort) هو هذا الموت الظاهرة المرتبطة بالكائن الحي، فكأنه اسم جنس أو أنه أصبح شخصا معينا.

2–استعملنا الكلمتين زيد وعمرو للإحالة بهما عن أي شخص كان، ولنقابل بهما استعمال اللغة الفرنسية الرموز الرياضية من مثل x وy وz الدالة على المجهول.

3–أي إلى إي جنس أدبي تنتمي؟ وعدم السؤال عنها يحيل إلى أنها أصبحت مألوفة لدى قراء بارث أو مريديه.

4–الترجمة الحرفية: إنهم يمثلون عملية الجماع.

5–تجلى استمرار الطفولة في بارث في حادث السير الذي أدى إلى وفاته. فقد كان يقطع الطريق و لم ينتبه إلى السيارات كما يقع للأطفال بفعل طيش الطفولة وعدم تقدير العواقب.

6–نسبة إلى جماعة تيل كيل (Tel Quel) التي أسست مجلة طليعية سنة 9 تحت إشراف جان إيديرن هالييي وفليب سولرس، سمتها بهذه العبارة التي تعني حرفيا "كما هو". وكان من بين المتعاونين بارث وكريستيفا وتودوروف وغيرهم.

7–والموت إيذان بنهاية الكائن الحي. فكأن صلاحيته انتهت مثلما تنتهي صلاحية الدواء وأي شيء يستعمل لمدة معينة.

8-يشير هنا تودوروف إلى وقع موت أمه التي كان متعلقا بها أيما تعلق. وهو الموت الذي جعل الحياة بعدها لا تساوي شيئا. ألم يقل في الصفحة... من هذا المقال: " لقد ماتت، و[بموتها] لم يعد بمكنتي إلا انتظار موتي التام الذي لا مراء فيه." "بعد هذا الموت الأول أصبح موتي محتوما، ولا يسعني، خلال الفترة الفاصلة بين الموتتين، إلا ترقب ساعتي."؟

*****

صدر حديثا